ظاهرة الإرتاج في الخطابة ودلالاتها عند العرب

دراسة موضوعية

The Phenomenon of ‹Irtaj› in Oration and its Implications among the Arabs: An Objective Study

د. أحمد عبده منصور القطامي[1]
Dr. AHMED ABDO MANSOOR Al-QUTAMI[2]

https://doi.org/10.54582/TSJ.2.2.44

(1) أستاذ الأدب بكلية التربية والآداب والعلوم المساعد-صعدة

عنوان المراسلة : ahmed-qutami@hotmail.com

(2) Assistant Professor – Faculty of Education, Arts and Sciences –Saada

ملخص البحث

الإرتاج إحدى ظواهر الأدب العربي القديم، وتكون مع الخطابة أكثر منها في الأنواع الأدبية الأخرى، وتعني توقف الخطيب عن الاستمرار في خطبته؛ لسبب من الأسباب: قد يكون الانبهار بكثرة الجمهور المستمع، أو خطورة الموقف الذي يعبر عنه الخطيب، أو غير ذلك من الأسباب.

وعنيت كتب التراث برواية أخبار وقصص من حدثت لهم هذه المواقف، من مصاقع اللغة، وأرباب اللسان، من الفصحاء المشهورين، رغبة في رصد معالجتهم لحالات التلكؤ تلك، وكيف أنهم انقسموا إلى فئات: فمنهم من أحسن الاعتذار، ومنهم من أساء التصرف، وآخرون أنشأوا خطبًا بديلة.

عنيت الدراسة برصد هذه الظاهرة، وتعريفها، وسرد شواهدها، ودلالاتها، ودلالة اهتمام المؤلفين بعرض نصوصها، كل ذلك في إطار منهج تأويل النصوص وتفسيرها، واتضح من خلال الدراسة وجود دلالات وأبعاد كثيرة لهذه الظاهرة، رصد البحث عددًا منها كما انتهت الدراسة إلى توصيات تخدم الظاهرة والظواهر المشابهة لها.

الكلمات المفتاحية

الإرتاج–الحصر–العي–الخطابة–الدلالة– تأويل

ABSTRACT

Irtaj, stopping or inability to continue speaking, is one of the phenomena of ancient Arabic literature. It is associated with oration more than its association with other literary types. It refers to the preacher's inability to continue his sermon (oration) for some reasons. It may occur because of the astonishment of the large number of listening audience, the seriousness of the situation expressed by the preacher, or because of other reasons. Old books were concerned with the stories of those who experienced these situations, from the famous eloquent and the lords of the tongue, in order to monitor their treatment of these lingering cases, and how they were divided into categories: some of them apologized, some of them misbehaved, and others created alternative speeches. The study has been concerned with monitoring this phenomenon, defining it, listing its evidence, its connotations, and the significance of the authors' interest in presenting its texts. All that was made within the framework of the method of interpretation of texts. Through this investigation, it has become clear that there are many implications and dimensions of this phenomenon. The research approached a number of these dimensions and implications. It is concluded with recommendations about this phenomenon and other similar phenomena.

Keywords: Irtaj; dyslogia; stammering; oration; semantics; interpretation.

مقدمة

كثيرة هي موضوعات الأدب العربي القديم التي لم تحظ بالعناية والدرس، ولم يتوقف عندها الباحثون المحدثون لاستجلاء غموضها، وكشف الستار عن مدلولاتها، والوقوف عند أبعادها، وربط كل ذلك بقواعد وأدوات المناهج المعاصرة.

لم يقدم لنا الأدب العربي كثيرًا من موضوعاته الأدبية على سبيل التسلية وتنمية الذائقة اللغوية فحسب، بل كانت معظم الموضوعات تساق في ظل جملة من المؤثرات الدينية والاجتماعية والفلسفية.

وإذا ما علمنا أن كاتبًا كبيرًا مثل الجاحظ، هو أول من أدخل بحث الحصر والإرتاج إلى باب الأدب، فإن علينا ببساطة أن نتوقف عند عمله هذا؛ لأنه يعني ما يقول.

وعلى الرغم من كثرة الدراسات التي نالها الجاحظ وكتبه، إلا أنني لم أقف على دراسة تفسر سر اهتمامه بموضوعات مثل: العي والحصر، على الرغم من أنها ليست البلاغة التي استهوت دارسي الأدب وشغفت قلوبهم، وهيمنت على بحوثهم ودراساتهم.

الإرتاج شيءٌ آخر غير البلاغة، وغير الفصاحة، وغير الطلاقة، بل هو نقيض ذلك كله، فلم يهتم به الجاحظ ومن جاء بعده من عمالقة الأدب العربي القديم، أمثال ابن قتيبة، وابن عبد ربه وغيرهم؟

فالجاحظ وزملاؤه لم يكن هدفهم من تقديمهم تلك الآثار مجرد الإضحاك، أو السرد التاريخي المجرد، وبنظرة كلية إلى طريقة الجاحظ وزملائه في استعراض موضوعات الأدب، فإننا نخلص إلى نتيجة مفادها ضرورة ربط تلك الموضوعات بواقع عصرها، ذلك العصر الذي اشتبكت فيه السياسة بالعقائد، والفلسفة بالاجتماع، واللغة بالدين.

الجاحظ لا يقول ما يريده بسهولة، ولا يتخذ الطريق المباشر للوصول إلى الهدف، إنه يدور ويستطرد، ويحشد الأمثلة والشواهد؛ ليتركك تتشبع بتلك الشواهد والاستطرادات، فتصل إلى ما يريد وأكثر مما يريد، وقد تختلف تفسيرات الدارسين، وكل يرى أنه وصل مع الجاحظ إلى الحقيقة؛ بيد أن هذا ديدن الكبار من الكتاب والمفكرين، يتركون بعدهم مدارس ومذاهب وآراء، قد تتوافق وقد تتقاطع فيما بينها، بينما يظل النص الأصلي حاملًا وقابلًا لكل تلك التفسيرات.

الإرتاج في تقسيمه العام يرد مع جنس النثر، وإن كان له بعض حضور مع الآثار الشعرية، إلا أنه في المقام الأول يصنف ضمن موضوعات النثر، وأكثر الآثار الأدبية في الإرتاج هي مما تنتمي إلى جنس الخطابة على وجه الخصوص.

وقد جاء بعد الجاحظ من أضاف شواهد وأمثلة جديدة، ومعاصرة لزمنهم، ما جعلنا أمام مادة غزيرة تستحق الوقوف عندها وبحثها وإيجاد تفسيرات لها.

ولا يقلل من هذه الأهمية خروج موضوع الإرتاج من كتب الأدب، أو اشتراك كتب اللغة والأخلاق والتهذيب والتاريخ في تناوله، ربما لأن الموضوع يتصل بأكثر من فن، أو لأن بعض التخصصات غير الأدبية رأت في الحديث عن الموضوع ارتباطا ما بينها وبين شواهده وأمثلته؛ لذا كان على الدارس لهذا الموضوع أن يسبر أغوار كتب التراث التي تناولت الموضوع من زواياه المتعددة.

إن قدرة النصوص التي استُشهد بها على موضوع الإرتاج والحصر تحيلنا إلى واقع حي متشابك المسالك، كثير المدلولات، وتشبع فضولنا العلمي والمنهجي الحديث، وهي مع ذلك تغرينا بالسير معها نصًا نصًا، ومفردةً مفردةً، لنكتشف أبعادها الدلالية والفنية، التي يمكن إسقاطها على واقع الدراسات الأدبية في عصرنا، ويمكن لها –كذلك– أن تضيف شيئا جديدا إلى مفهوم هذه الظاهرة.

أهمية البحث :

لفت نظر الباحث أثناء تصفحه لكتب التراث الأدبي وجود شواهد مبثوثة، في صفحات تلك الكتب، تتعلق بموضوع الإرتاج والحصر في الكلام، وبحث في الدراسات الحديثة والمعاصرة؛ لعله يجد دراسة علمية مستوفاة، تتناول هذه الظاهرة، فلم يجد؛ سوى ما كتبه مصطفى ناصف في كتابه (محاورات مع النثر العربي) من إشارات عامة ومقتضبة، لا تفي بالغرض؛ فهو لم يبسط الحديث عنه، ولم يستقص شواهده، كما أنه لم يقم بإنجاز تحليل منهجي، يأخذ بهذه الظاهرة من نواح شتى، واقتصر حديثه على ما كتبه الجاحظ في الموضوع.

لا ضرورة للتأكيد على أن أهمية البحث في هذا الموضوع تبدأ أولاً من حيث افتتح الجاحظ أبواب (البيان والتبيين) بالكلام عن موضوعي العي والحصر، وأن من جاء بعده من الكتاب قد تناولوا هذا الموضوع كلٌ بطريقته التي يراها مناسبة، غير أن اللافت هو تكرار الموضوع عند عدد غير قليل من المؤلفين.

وفي ظل تطور مناهج دراسة الأدب، وخاصةً طريقة (تأويل) النصوص، فإن إعادة النظر في موضوعات الأدب القديم تحيلنا إلى نتائج أعمق مما كان عليه التصور السائد، الذي اكتفى بالخروج بنتائج سطحية ومباشرة.

ذلك أن «التأويل جهد لغوي وفكري وثقافي يقوم به المفكرون ونقاد الآثار الفنية ليعطوا للنصوص التي بين أيديهم معاني لا تقدمها تلك النصوص من الوهلة الأولى». [1]

إن الوقوف عند ظاهرة الإرتاج في الكلام؛ تكشف علاقة هذه الظاهرة بموضوعات الدرس الأدبي، وتفتح آفاقا جديدة لدراسة ظواهر في التراث لم يعرها المحدثون اهتماما كافيا.

مشكلة البحث:

الشواهد والمرويات في هذا الموضوع عديدة، فلماذا حرص علماء العربية على روايتها؟ ولماذا لم يقم الدارسون بتسليط الضوء عليها؟ فالمشكلة إذن تتلخص في وجود ظاهرة أدبية، أو موضوع أدبي، مشفوع بآثار ونصوص لم تدرس، كما يقتضي فهمنا اليوم لأدوات المناهج الحديثة أن نخضعها لآليات تلك المناهج المعتبرة.

أسئلة البحث:

أهداف البحث:

إننا نهدف من وراء هذه الدراسة إلى إثبات أن ما نال اهتمامهم قد ينال اهتمامنا –أيضًا– وأن جسور التواصل بين أهل الفن متصلة مهما كانت الحواجز والفواصل الزمنية.

كما نحاول في هذه العجالة مسايرة النصوص، ومساوقتها، والالتحام معها؛ للوصول إلى الدلالة الثانية أو الثالثة....إلخ، ومن ثم تجاوز المدلول الواحد؛ لأنه يصطدم بفرضيات المنهج النقدي الحديث، ويحول النص إلى جثة محنطة لا تنبعث منها سوى رائحة الجنائز.

إذن علينا أن ننصت إلى النصوص، ونحسن محاورتها ونتلقى إشعاعاتها، ونعكس فهمنا المعاصر لها، المهم في الأمر أن اللغة هي الأداة والأساس لهذه التفسيرات، وإننا في كل تفسير لا نتعدى أساسها ولا ننطلق من سواها.

وحين تكون النصوص الأدبية –شعرية كانت أو نثرية– صادرة عن كاتب كبير، أو عدد من الكتاب الكبار، فإن المنطق يقتضي الوقوف عند تلك النصوص مليًا، وفحصها وغربلتها؛ ذلك لأنها في العادة لا تسلم نفسها بسهولة، ولا تقدم ذاتها بصورة تلقائية ومباشرة.

حدود البحث:

ينحصر البحث في دراسة ظاهرة الإرتاج، ويضرب صفحًا عن دراسة الموضوعات التي لها علاقة ما بهذه الظاهرة، مثل؛ العي والعجز التام الناشئ عن عدم القدرة أو العيوب الخلقية.

يمتد تاريخ هذه النصوص في زمن إنتاجها في العصور القديمة، وخاصة عصر صدر الإسلام، والعصر الأموي، والعصر العباسي.

خطة البحث

ووفقًا لطبيعة الموضوع قمت بتقسيم البحث إلى مقدمة، وتمهيد، قدمت فيه نبذة مختصرة شبه تاريخية عن الموضوع، ودور الجاحظ فيه، وارتباط الإرتاج بموضوعات الأدب، وأهمها الخطابة.

تم عرجت على تعريف المصطلح، وذكرت مرادفاته، والمصطلحات ذات الصلة به، وبينت نقاط الاتفاق والافتراق، استنادًا إلى معاجم اللغة.

ثم تعرضت لدلالات وأبعاد هذه النصوص معتمدًا منهج (تعدد التفسير) إذ لا يمكن اكتشاف أسرار هذه النصوص بدلالة واحدة مباشرة.

ثم قمت باستعراض هذه الشواهد وتصنيفها والتعليق عليها، بما يتطلبه كل نص وأشباهه من تصنيف وتعليق، وبما يتناسب مع سياقاته.

وأخيرا صنعت الخاتمة وقائمة المصادر.

وقد ركزنا في هذه الصفحات على الإرتاج بوصفه موضوعًا متصلاً بالخطابة أساسًا، وسيؤجل الحديث عن الإرتاج في الشعر والقرآن الكريم إلى بحث آخر، غير أن أساس الدراسة سوف تتمحور في موضوع الإرتاج في الخطابة.

معنى الإرتاج

بعض من تناول كتب الجاحظ وقف عند موضوع الحصر، لا باعتباره موضوعًا مستقلاً، وإنما باعتباره وثيق الصلة بالدرس البلاغي، وخلط بعضهم بين موضوعين –أحسبهما منفصلين– هما موضوع العي، وموضوع الإرتاج. (2)

ترد إلى جانب مصطلح الإرتاج مصطلحات أخرى، بعضها مرادفة له وبعضها، الآخر متقاطعة ومشتجرة معه، من هذه المصطلحات مصطلح (العي) و(الحصر) و(الحبس) و(الحجب) و(الإجبال)، وقد اختلف من تعرض لهذه الظاهرة في التمييز بين هذه المصطلحات، وبعضهم عدها لونًا من ألوان الترادف.

وبالنظر إلى التعريف المعجمي فإننا نجد أن مصطلح (الإرتاج) هو الأكثر ارتباطًا بالمعنى العملي للموضوع، في حين نجد المصطلحات الأخرى تستخدم عند المحققين من المعجميين بمعنى الإرتاج، وبمعان أُخر لا صلة لها بموضوعه، كما هي عادة بعض الألفاظ التي تكون حمالة أوجه، فالإرتاج مأخوذ من «الرَّتَج، والرِّتاج: الباب العظيم، وقيل هو الباب المغلق، وقد أُرْتِجَ الباب إذا أغلق إغلاقًا وثيقًا». (3)

«والعامة تقول أُرْتُجَّ بتشديد الجيم وضم التاء، وهو خطأ؛ لأنه أفعل من الرِّتاج وهو الباب المغلق».[4]

هذا من الناحية المعجمية، أما من حيث المصطلح العلمي؛ فقد تطرق أصحاب المعاجم لذلك، وحددوا ماهية الإرتاج، ومنهم ابن منظور، الذي يقول: «ويقال أُرْتُجَ على فلان إذا أراد قولاً أو شعرًا فلم يصل إلى تمامه، ويقال في كلامهِ رَتَج أي تتعتع، والرَتَج استغلاق القراءة على القارئ يقال: أرْتُجَ عليه وارْتُجَّ عليه، واستُبهِم». [5]

ومن هذا التعريف يتضح أن الرَتَج هو توقف الكلام، أو تلكؤ المتكلم حتى يتوقف عن القول تمامًا، سواء في النثر، أو الشعر أو قراءة القرآن الكريم، والإشارة في هذا التعريف إلى القراءة تشمل ما يُقرأ، وهذا ما يرد بوضوح أكثر في تعريف ابن درستويه «ومعنى أُرْتُجَ عليه فهو مُرتَجٌ عليه، أي مغلقٌ عليه،لأنه يراد أن القارئ قد أُغلق عليه ما كان يقرأه، ذلك إذا انقطع عليه كلام أو قراءة أو شعر يقرضه، فلم يدر ما تمامه». [6]

أما لفظ (الحصر) فهو المصطلح الثاني من حيث الشيوع والاستخدام، وهو والإرتاج يستخدمان بمعنى واحد من حيث انطباقهما على الأمثلة والشواهد التي بين أيدينا، وإذا ما رجعنا إلى المعاجم فإن الحصر من « حَصِرَ الرجل مثل تعب تعبًا فهو حَصِرٌ: عَيِيّ في منطقه، وقيل: حَصِرَ لم يقدر على الكلام»[7]، و « حَصِرَ صدره: ضاق، والحَصَر: ضيق الصدر، وإذا ضاق المرء عن أمر قيل: حَصِرَ صدر المرء عن أهله يَحْصُرُ حَصْرًا، ... [8]

وأما لفظ (الإجبال) فاستخدمه أبو هلال العسكري في كتاب الصناعتين[9] وهو «المنع، يقال: سألناهم فأجبلوا، أي مَنَعُوا». [10]

و(الحَجْب) من الحِجَابة، «اسم ما حجبت به بين شيئين، وكل شيءٍ منع شيئا فقد حجبه»[11] فالحجب إذن المنع وهو ذات معنى الإجبال.

أما (الحَبْس): فهو مرادف لهذه المصطلحات كلها ويقال: (حُبْسَة)، «وأما الحُبْسَة فهي ثِقَلُ النطق على اللِّسان من غير أن يتردد في حروفٍ بعينها كالفأفأة والتمتام، وقد يكون السبب في ذلك عدم وضوح ما يريد أن يقوله أو الحياء والخجل». [12]

من هنا يتضح أن معنى الحبس أوسع من الحصر، فهو يشمل معناه أيضًا.

هذه المصطلحات الخمسة استعملت في الغالب للدلالة على انقطاع الكلام، أو توقفه مؤقتا أو نهائيًا، واحتباسه بسببٍ طارئ.

أما (العِيّ) فقد يستعمل بمعنى الحصر، ويستعمل بمعنى «المعاياة: أن تأتي بكلام لا يهتدى له، وقال

الجوهري: أن تأتي بشيءٍ لا يهتدى له» [13]، وقد ورد العي بمعنى الجهل، والعي خلاف البيان، وقد عَيِي في منطقه، وفي المثل أعيا من باقِل.[14]

فالعيّ إذن يشترك في معانيه مع الحصر ومن معانيهما المشتركة الإبهام؛ أي الكلام المبهم الذي لا تتضح حروفه ولا تفهم معانيه، غير أن الجاحظ استخدم مصطلح الحصر ضمن خطأ العلماء، وكان قد بدأ بذكر الحصر مرتبطًا بالعيّ وملتبسًا به في بداية كتابه البيان والتبيين، لكن غيره من العلماء الذين أتوا بعده ميزوا بين الحالتين.

والذي يظهر من استخدامهم للمصطلحين: أعني (الحصر أو الإرتاج) و(العيّ) أن العيّ حالة عامة قد تشمل الحصر، لكن أغلب الأمثلة التي سيقت للدلالة عليه –ومن ذلك أمثلة الجاحظ– تتعلق بحالة من العجز الدائم، أو شبه الدائم، فالعيّ حبسٌ عن الكلام بسبب الجهل، أو بسبب فسيولوجي خَلْقِي، يتعلق بتعثر اللسان بشكل دائم غير أن المحصر والمرتج ليس عاجزا عن القول، فكل حالات الحصر والإرتاج تتعلق بأصحاب اللَّسَن والفصاحة، الحصر حالة مؤقتة، أو انغلاق وانحباس للكلام بسبب عارض، قد يكون سببًا نفسيًا أو اجتماعيًا، ما يلبث أن يزول، ويعود المحصر لحالته من اللسن والفصاحة.

الحصر والإرتاج كبوة الفصحاء، أو عثرة المتكلمين، لهذا ينظر إليه بغرابة وإنكار، وقد نجد من ينكر بعض شواهده، كما ينكر بعضهم حالة الحصر التي اعترت الخليفة عثمان بن عفان –رضي الله عنه– [15] أخبار العيّ ترتبط كثيرًا بأخبار النوكى والحمقى والمغفلين، وأخبار الحصر ترتبط بالعلماء، كما صنع الجاحظ وغيره، الذين ميزوا بين الحالتين، ففصلوا أخبار الإرتاج في مباحث خاصة مستقلة عن باب العي.

المرْتَج يكون علمًا من أعلام الأدب أو رمزًا من رموز السلطة، أو المعرفة العلمية، لذا نجد أكثر الأمثال جاءت لخلفاء وأمراء وعلماء، ومن لهم باع طويل في الكلام.

جمهور أخبار وقصص العيّ هم الأعراب والموالي وأنصاف المتعلمين، أما المحْصِرون فهم من تعرضوا لمواقف محرجة، وذلك حين أراد أحدهم المواءمة بين قناعاته الذاتية، ومتطلبات المجتمع التي لا تتساوق مع تلك القناعات، فوقف حائرًا بين أن يلبي حاجات ذاته، أو حاجات المجتمع الخارجية، وفي وقت ضيق حرج تأزم موقفه وتلكأ.

الإرتاج شعور مؤقت بالعجز أمام سلطان اللغة؛ عجز الخطيب عن إتمام خطبته، والشاعر أن يستكمل قصيدته، وقارئ القرآن أن يستمر في قراءته.

ولأن العربي تعود على الارتجال، فكان يخطب بدون إعداد سابق، وربما طلب منه أن يقول شعرًا بصورة ارتجالية –أيضًا– فكان حين يبهره الموقف بمشاهدته كثرة الجماهير المحتشدة، أو نوع المستمع له كأن يكون أميرًا أو خليفة ذا سلطان وهيبة، عندئذٍ يصاب بالبهر والدهشة فينحبس عنده الكلام.

لكن لماذا عني العلماء بظاهرة الإرتاج في الخطابة أكثر من الشعر؟ وأكثر من القرآن الكريم؟ فالملاحظ أنهم حين يتحدثون عن الخطابة أو يتطرقون إليها يخصصون مبحثًا للإرتاج، وهذا لا يكاد يكون مع الشعر، لعل السطور التالية تجيب عن هذا التساؤل.

التمس العلماء للخطيب المرتجل العذر ولم يلتمسوا للكاتب ذلك، قال عبد الله بن الأهتم: «إني لا أعجب من رجل تكلم بين قوم فأخطأ في كلامه، أو قصر في حجته؛ لأن ذا الحجة قد تناله الخجلة، ويدركه الحصر، ويعزب عنه باب من أبواب الكلام، أو تذهب الكلمة، ولكن العجب ممن أخذ دواة وقرطاسًا، وخلا بعقله، كيف يعزب عنه باب من أبواب الكلام، أو يذهب عنه وجه من وجوهه؟». (16)

دلالات ظاهرة الإرتاج

إن اهتمام علماء العربية بالظواهر الأدبية لم يقف عند حد الموضوعات الكبيرة أو العامة، بل وصل إلى دقائق المسائل وصغارها، فكانت كل مسألة تأخذ منهم جهدًا مشكورًا، يتناقلونها جيلًا بعد جيل، يضيفون إليها الأمثلة والشواهد بقدر ما تتاح لهم فرصة اكتشافها، كما يضيفون شواهد جديدة استجدت مع الزمن، وهذا ما نجده مع شواهد الإرتاج، التي تتوزع من بداية العصر الجاهلي وحتى العصور المتأخرة.

وعندما تطورت مناهج دراسة الأدب، اكتشفنا مدى الحاجة إلى دراسة هذه الظواهر، بوصفها المادة الخام، التي يمكن للدارسين أن ينسجوا منها توصيفًا جديدا للتراث الأدبي، كما تسهم دراستها في محاولات الدرس الأدبي المتكررة للوصول إلى فهم أعمق للظواهر الأدبية.

ومع ذلك لم يأخذ درس الإرتاج ومثله العي حقهما من الدراسة والتحليل، كما أخذته البلاغة والبيان «إن تاريخ العي لم يكتب كتابة مفصلة واضحة، لقد طغت على العي أخبار الفصاحة والبلاغة، وتجاهل الباحثون الحياة اللغوية الحقة، وما يضطرب فيها من بلاغة وعِيّ». (17)

وبما أن بعض العلماء نظروا إلى الإرتاج بوصفه جزءًا من العي، أو موضوعًا له ارتباط بالعي، فإنهم جميعًا لم يقدموا تفسيرات منهجية لهذه الظاهرة، بوصفها المقابل الموضوعي للبلاغة والفصاحة، ولم يكن المحدثون أحسن حالاً من السابقين في دراسة هذه الظاهرة، وذلك حين اكتفوا بالإشارات العابرة، والتناولات المقتضبة.

ومن هنا فإنه لا مناص من الوقوف مع الجاحظ، صاحب السبق، وأكثر من تعرض للموضوع، فقد ذكر الجاحظ موضوع الحصر في أكثر من موطن من كتابه البيان والتبيين، وكان كلما تعمق في الحديث عن البلاغة والبيان يجد قلمه مشدودًا –كعادته في الاستطراد– للحديث عن العي والحصر، ولم ينل الموضوع بعد الجاحظ حقه من الربط بالبلاغة، وانصرف اهتمام العلماء بعده إلى ذكر الأمثلة والشواهد في مناسبات عدة، بعضها يتعلق باللغة، وبعضها الآخر في سياق ترجمة حياة الأشخاص، وربما ذكرت

بعض هذه الأمثلة في معرض الطرائف والنكات.

كما تنتهي حياة البلغاء بمرحلة البلاغة والإعجاز؛ فهي تمر قبلًا بمرحلة العيّ، وقد ينتابها الحصر والإرتاج في أي مرحلة من مراحلها.

اللغة –إذن– شبكة علاقاتٍ وصلات وهي تستحق من العلماء والأدباء والمؤرخين العناية والاهتمام، بما في ذلك ظاهرة (التعثر) في استخدامها؛ لأن الوقوف عند مواقف التعثر يساعد في (نضوج) مفهوم البلاغة والفصاحة جريًا على عادة العرب في قولهم: وبضدها تتميز الأشياء.

إن هذه اللجلجات والترددات وغيرها من مظاهر التخبط والبهر والعجز هي أيضًا ظاهرة لغوية، تستحق شيئًا من الوقوف عندها، ولو لم يكن بنفس القدر مع البلاغة والفصاحة واكتمال البيان «وقالوا البيان بصر والعي عمى، كما أن العلم بصر والجهل عمى، والبيان من نتائج العلم والعي من نتائج الجهل». [18]

كان مفهوم البلاغة يفرض عليهم فرضًا أن يشيروا إلى الحصر والعي، فهما مقترنان ولا تتضح بلاغة البليغ إلا بظهور عثرات المحصر وكبواته.

قال رجل «للعتابي: ما البلاغة؟ فقال: كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حُبْسَة ولا استعانة فهو بليغ»[19]، «وقيل لابن المقفع: ما البلاغة؟ قال: قلة الحصر، والجراءة على البشر، قيل له فما العي؟ قال: الإطراق من غير فكرة، والتنحنح من غير علة». [20]

فذكر البلاغة –عندهم– يستلزم ذكر العي والحصر، كما أن ذكر العلم يستلزم ذكر نقيضه وهو الجهل.

حقل اللغة –إذن– واسع، فكما يشمل المترادفات والمتشابهات يشمل كذلك المتضادات والمتقابلات، ولا بد لدارسي اللغة من الإلمام بهذا وذاك في آن واحد.

ونتيجة لهذا الربط بين موضوعي البلاغة والفصاحة من جهة، وموضوعي الحصر والعي من جهة أخرى، قام بعض العلماء ببحث موضوع الإرتاج وأبرزهم الجاحظ الذي كان كلما ذكر الفصاحة والبلاغة عاد لذكر العي والحصر واستشهد بأمثلتهما وعلق عليهما.

****

لم يكن ارتباط موضوع الإرتاج بالفصاحة هو السبب الوحيد لاهتمام العلماء، بل هناك سبب آخر يتضح من خلال أسماء المحصرين.

فإذا كان العي يشمل كل من تلجلج في الخطاب، فإن الإرتاج خاص بأرباب الكلام، والرواد المشهورين، أعلام البيان، أمثال: عثمان بن، عفان، ومعاوية بن أبي سفيان، وأخيه يزيد والأمير خالد بن عبد الله القسري، ويزيد بن المهلب، وبعضهم علماء مشهود لهم كأبي علي القالي، وقد يكونون شعراء؛ كعبيد بن الأبرص الشاعر الجاهلي المشهور.

كان الكاتب العربي يقف متأملًا لمشهد رجل مميز في سلطانه السياسي أو الثقافي، يقف متعثرًا على منصة أو منبر، فيستمتع بكبوته قوم، ويشفق عليه آخرون.

ومن الدواعي السياسية لهذه المرويات النيل من الخصوم، بوصفها كبوات استغلت إلى أقصى حد، واختلفت أغراضهم في ذلك، فمنهم من استغلها للتشهير بالخصم، أو التهوين من شأنه، ومن ثم التقليل من كفاءته وقدرته، ومنهم من التمس للمحصر العذر، وإذا كان هذا الحال مع أرباب السلطة، فكيف يكون الحال مع من لا يمتلكون سلطة سياسية؟ لا شك أنهم نظروا إلى نوع آخر من السلطة، إنها سلطة الثقافة والمعرفة، حيث إن بعض هؤلاء الذين ذكرت لهم آثار من هذا القبيل هم مؤلفون ومعلمون متميزون وشعراء.

أحاديث الإرتاج كبوات الساسة والبلغاء والشعراء والخطباء وهم فئات يلتفت إليهم؛ لما لهم من مكانة، ولما يمتلكون من حضور علمي وأدبي، فالاهتمام بالحصر من هذه الزاوية هو اهتمام بالمحْصِر وعناية بتاريخ شخصيته ومراحل حياته.

بينما أحاديث العي قد تختلف بعض الاختلاف عن أحاديث الإرتاج؛ كون أصحابها من الفئات المغمورة، ولهذا فإن الأهمية لسرد وقائع العي هي للموضوع الأدبي ذاته، وليس للأشخاص، وإن ورد ما يفيد السخرية من بعض الفئات في الآثار المتعلقة بالعيّ، كما أن هدف الإضحاك والسخرية من بعض الشرائح الاجتماعية والفئات تأتي في مقدمة الأهداف من سرد آثار العي؛ لهذا سخروا من بعض الشرائح كشريحة الأعراب والموالي وصوروهما تصويرًا يقترب من البلاهة والغفلة والسذاجة.

كان العربي ينظر إلى الفصاحة بوصفها واحدة من مؤهلات المسؤول لتبوء المسؤولية، بل كانت أهم المؤهلات لذلك، فالخطابة سمة ملازمة للقادة والأمراء والخلفاء، وكان من النادر أن يتولى المسؤولية رجل غير خطيب، وخاصة في العصرين الجاهلي وصدر الإسلام، فحين يتعثر الحاكم أو المثقف فإن توظيف الحدث يبلغ أقصى مداه من قبل خصومه.

لم ينظر العربي إلى اللغة على أنها مجرد وسيلة تواصل وحسب، بل نظر إليها بوصفها شرطا من شروط القائد الناجح، وكانت تحقق لصاحبها مجدًا شخصيًا كبيرًا، والإرتاج يمثل عائقًا من المعوقات، التي تحول دون الوصول إلى هذا المجد الشخصي.

ويأتي الاهتمام بأحاديث الإرتاج باعتباره نوعا من الاهتمام **بالمعوقات اللغوية**، التي تحول دون البلوغ إلى ذروة التفوق اللغوي، ومن ثم الحيلولة دون الوصول إلى تبوأ المكانة اللائقة قبليًا أو حزبيًا.

هذا يؤدي بنا إلى القول: إن اللغة تعاني من خصومة بشكل ما «وهل الحصر رغبة تواجه عقبات كثيرة يخلقها المجتمع الذي يتنافس أفراده؟ الحصر ينطوي–فيما يبدو–على ما يشبه الخصومة التي تطرأ على علاقة المتكلم بالمجتمع واللغة، »[21]

هذه الخصومة قد تدفع إلى الإسهاب في القول لتفنيد حجج الخصوم، كما قد تدفع إلى الإيجاز، وربما إلى الإرتاج، كل ذلك لأن المتكلم وهو يتكلم يضع في حساباته نظرات خصومه، قال الشاعر:

يرمون بالخطب الطوال وتارةً وحي الملاحظ خيفة الرقباءِ [22]

وقال الآخر:

للقول مستمعٌ يُزري بصاحبه منه الغلوّ وقد يُزري به الحَصَرُ

وخير حال الفتى في القول أقسطها بين الطريقين لا عِيٌّ ولا هَذَرُ [23]

الإرتاج –إذن– صورة من صور الهزيمة التي قد يهزم فيها المتكلم من قبل خصميه: اللغة والمجتمع، المتكلم ينهزم أمام تمانع اللغة وينهزم أمام سطوة المجتمع «فاللغة تخاصمنا وتتأبّى علينا حينًا، وتنثالُ انثيالًا حينًا آخر». [24]

هذا الحديث يقودنا إلى وجه آخر من القول يتعلق باللغة ذاتها، فهي ليست طيِعة تنقاد لنا في كل حين، ولا هي التي تسلس قيادها للمتكلم باستمرار، وقد أراد الجاحظ وغيره من علماء العربية أن يلفتوا النظر إلى هذا المعنى، ومن ثم إلى معنى آخر يتعلق بالمعاناة التي يعانيها المتكلم، والجهد الذي يبذله في سبيل عملية ولادة النص.

فوراء كل نص بليغ معاناة لا تتكشف لنا، ولا نلحظها، نحن فقط نصرف عنايتنا نحو المنتج الأدبي، أما ما وراء الكواليس فلا يهم المستمعين، والإرتاج من جانب ما يوقفنا على مدى المعاناة، التي يعانيها منتج النص، والجهد الذي يبذله في سبيل الوصول به إلى الكمال، وقد كشفت لنا أحاديث القوم مبلغ هذه المعاناة.

قيل لعبدالملك بن مروان: عجل عليك المشيب يا أمير المؤمنين فقال: كيف لا يعجل وأنا أعرض عقلي على الناس في كل جمعة مرة أو مرتين[25]، يقصد خطبة الجمعة.

وقال عبد الله بن زياد: نعم الشيء الإمارة، لولا قعقعة البريد، والتشرف للخطب [26].

لقد صور شعرهم بعض هذه المعاناة، وأمثلة الحصر توقفنا عند واحدة من هذه المعالجة، وما يترتب عليها من آلام ومخاض، قال النمر بن تولب:

أعذني ربِّ من عِيٍّ وحَصْرٍ ومن نفسٍ أعالجها علاجًا [27]

وقد كشف لنا الشعر القديم بعض هذه المعاناة، التي تبدو في ملاحقة النفس، ولغة الجسد، المصحوبة بالحركات والانفعالات التي صورها الشاعر في قوله:

مليءٌ بِبُهْرٍ والتفاتٍ وسُعْلَةٍ ومَسْحةِ عُثْنُونٍ وفتْلِ الأصابعِ [28]

ويقول بشر بن المعتمر:

ومن الكبائرِ مُقْوِلٍ مُتَتَعتعٍ جم التنحنح مُتْعَبٍ مبهورِ [29]

هذا الجهد لا يقتصر على مرحلة الإعداد الذهني، بل يتعداه إلى مرحلة الإلقاء، فقد يحسن الخطيب الإعداد ويتهيأ للكلام، لكن تخذله اللغة عند الارتجال، ومواجهة الجماهير «الخطيب على المنبر وبين السماطين ويوم المحفل يعتريه من الحصر والتتعتع والخجل في شيء قد حفظه وأتقنه، ووثق بحسنه ونقائه». [30]

وقد نجد بعض الآثار تتحدث عن سليقة العربي ومبادأته «ومع الإشارات المتكررة إلى أن العرب قبل الإسلام كانوا يخطبون بلا معاناة وبلا كد ومشقة، فإن إشارات أخرى تدل على أنهم كانوا في بعض المواقف يقصدون قصدًا إلى تهذيب كلامهم، وتصفيته والتكلف له، وتحريره من الأغلاط والعيوب» [31].

وقد ورد عنهم أنهم كانوا يتهيبون صعود المنابر، ويرى بعضهم المبارزة بالسيف أهون من المناظرة بالكلام، وزهدوا في المنابر، كما زهدوا في المناصب، وخاصة في العصور الإسلامية الأولى.

****

من زاويةٍ أخرى، فإن **الصمت من** أهم مظاهر الإرتاج ، وكانت العرب تعد الصمت (لغة)، فكما تكون الطلاقة والسلاطة لغة، يتحقق من خلالها التواصل والتأثير؛ فإن الصمت لغة تحقق بعضًا مما يحققه الكلام، وربما تحقق شيئًا لا يكون من خلال الكلام، «فالحياة تحوج الناس إلى الحدة والصخب والكلام الكثير، وتحوجهم إلى العِي، عالمٌ عجيب زاخر نسميه لغة»[32]، «قد تكون كثرة الكلام غرضًا، وربما حقق المرء بعض أغراضه من خلال العي والحصر أيضًا» [33].

الصمت قد يحقق معنى الاحتجاج، وقد يعني عدم الرضا بالواقع، الصامت المحصر قد يفعل ذلك كنوع من الانتقام من سلطة اللغة، وسلطة المجتمع، الصمت أحيانًا تخلي عن الخوض في مشاركة غير

مرغوبة، وقد يمثل تنديدًا بالعوائق والعقبات التي يصنعها المجتمع في طريق المتكلم.

الصمت –أحيانًا– يمثل صرخة في وجه الظلم الاجتماعي، والسلطان القاسي الذي يفرض هيمنته على المتكلم، الصمت ومنه الحصر يمثل موقفًا مغايرًا للموقف الجمعي الذي تقفه غالبية الناس، والخطيب فيه يتمرد على هذه الغالبية؛ ليوصل رسالة ما، في موقف ما، نستطيع أن نفهم مفادها في كل موقف بحسبه، وبالواقع الاجتماعي واللغوي الذي أحاط به وملابسات الحدث.

والعربي وهو يستعمل لغة الصمت ينطلق من مأثور زاخر بالآثار والشواهد التي تتحدث عن فضيلة الصمت، وتعلي من شأن الصامتين.

ففي الحديث الشريف «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت»[34]، والحكمة العربية تقول: من صمت نجا[35]، وقال الأصمعي: قال أعرابي: السكوت صيانة للسان وستر للعِي[36]، وقال أعرابي في رجلٍ رماه بالعِي: رأيت عثرات الناس في أرجلهم، وعثرة فلان بين فكيه[37]، وروى حماد بن سلمة عن أبي حمزة عن إبراهيم (النخعي) قال: إنما يهلك الناس في فضول الكلام وفضول المال[38]، وقال الشاعر:

وجواب الجاهل الصمت ... وفي الصمت سلامة[39]

وقال هبيرة بن أبي وهب:

وإن مقال المرء في غير كنهِهِ ... لكالنبل تهوي ليس فيها نصالها[40]

وقال الآخر:

لو كان من فضةٍ تكلم ذي النُط ... قِ لكان السكوت من ذهبِ[41]

وقال آخر، ويروى للإمام الشافعي:

وجدت سكوتي متجرًا فلزمته ... إذا لم يفد ربحا فلست بخاسرِ

وما الصمت إلا في الرجال متاجرٌ ... وتاجره يعلو على كل تاجرِ[42]

فالصمت يعني عند العرب إيثار السلامة، وكسب خير الموقفين، واجتناب الشر، الصمت إذن ثقافة عند العربي المسلم، يعبر عن رجاحة عقول الرجال، وثقل أوزانهم، وكثرة الكلام قد يدل على الخفة والطيش.

بيد أنهم رغبوا كذلك في الكلام في أوقاته وعند الحاجة إليه، وتوصلوا في ذلك إلى حالة من التوسط،

قال الجاحظ: «وهم وإن كانوا يحبون البيان والطلاقة والتحبير والبلاغة، والتخلص والرشاقة، فإنهم كانوا يكرهون السلاطة والهذر والتكلف والإسهاب والإكثار؛ لما في ذلك من التزيد والمباهاة واتباع الهوى والمنافسة في الغلوّ، وكانوا يكرهون الفضول في البلاغة؛ لأن ذلك يدعو إلى السلاطة، والسلاطة تدعو إلى البذاء»[43].

وقال غيره: «استحسنوا في المتكلم أن يكون قائلًا لا يبلغ الهذر، وصموتًا لا يبلغ العي»[44].

فتقدير العرب لخطر الكلمة وأثرها، دفعهم إلى التروي في القول، وفحص المضمون، حتى لا تكون النتيجة كارثية على الفرد والمجتمع، فالكلمة قد تشعل حربًا، وقد تطفئها، وقد تكون بلسمًا يشفي الجراح، أو طعنة تورث الأحقاد والضغائن، وتذكي العصبيات والثارات.

ومعنى ذلك أن التوقف عند ظاهرة الحصر والإرتاج يعني التوقف عند أسباب ومسببات ظهور الكلمة إلى العلن، فحين احتبست الكلمة كان حابسها يرى أنه يمسك سلاحًا فتاكًا يكاد يؤدي إلى مشكلة على مستوى الفرد والجماعة.

إن المتكلم الشفاهي لا يرسل عبارات مجردة لا معنى لها، إنه يخاطب عقولًا، ويصنع مواقف، وينشئ واقعا، وكل كلمة يقولها يحسب لها حسابًا، لهذ السبب أخذت الكلمة من صاحبها رهبة، ولهذا السبب توقف البلغاء وحصروا.

****

فاللغة لا تبعد أن تكون على صلة بما يسمى (فتنة القول)، فقد تحدثوا عن فتنة الدنيا، وفتنة المرأة، وفتنة المال، وغيرها من الفتن التي تأخذ بالألباب، وتوقع الناس في شباكها ونراهم معها في حالة (افتتان)، «فتنة القول عند الجاحظ تذكر بكلمة السحر والنرجسة»[45].

واللغة لشدة فتنتها قد تصيب المتكلم بالبهر والرِّعدة والرعشة، كما يفتتن الرجل بالمرأة الجميلة، فيصيبه الذهول، وربما الجنون، عندئذٍ يكون الحصر والتلكؤ.

اللغة أخذت بألباب العرب واستهوت على عقولهم وأذواقهم، ومن شدة ولعهم بها وقعوا في تلك الكبوات والعثرات، وكان على الدارس للغة والمدون لها أن يكشفا لنا عن جانب من تلك الفتنة المتمثلة في تلك المواقف التي وقع فيها مصاقع اللغة وأرباب الخطاب، تمامًا كما نتحدث عن أحاديث العشاق ونستمع لحكايات إخفاقهم وغلبة سلطان الحب عليهم، وكما نشفق على المحبين، نشفق كذلك على المحصرين الذين أوصلهم حب اللغة وغرورها والتعلق بها إلى حالة الحشرجة والاحتباس.

فتنة القول قد تصيب صاحبها الفرد المتكلم كما تصيب الجماعة اللغوية، ولشدة تعلقهم بها يطيلون النظر في انتظار المولود اللغوي، فترى الجماعة فاغرة أفواهها، ومشنفة آذانها تنتظر خروج المولود، هذا الافتتان الجماعي باللغة واحد من أسباب اهتمام العلماء بآثار الحصر والإرتاج.

****

كذلك لابد من الإشارة في موضوع الإرتاج إلى مسألتين تمثلان أهمية ليست بالقليلة، وهما متعلقتان بتأثير المجتمع في اللغة وموضوع الارتجال.

«فاللغة لا تنكشف من داخلها فحسب، بل تنكشف أيضًا من علاقتها بالمتكلم والمجتمع»[46]، وهذا ما يتجسد في نصوص الإرتاج وخاصة مع موضوع الخطابة، فالخطبة مأخوذة من الخطب، وهو الأمر الجلل، وهي مأخوذة كذلك من مخاطبة أي مشاركة « وقد عرفت الخطابة إذن باعتبارها مشاركة في فعل ذي شأن، مخاطبة من خَطْبٍ، إذ المفاعلة تفيد الاشتراك»[47]، فالخطيب يتفاعل مع جمهوره، ويؤثر هذا التفاعل سلبًا أو إيجابًا على نوع الخطبة، ومن ثم فإن التأثير الخارجي المتمثل في الجمهور المؤثر يشكل عاملًا من عوامل الإبداع أو الإخفاق، فالخطيب عندما يرتجل خطبته ينظر في عيون الجماهير، ويتطلع إلى ردود أفعالهم، وقد يفاجأ الخطيب بكثرة الجمهور أو نوعه، وحين لا يستطيع الموازنة بين قناعاته الذاتية ورغبة الجمهور يصاب بالبهر والإدهاش.

ولأن الخطيب العربي يعتمد أساسًا في خطبه على الارتجال، فإن نجاحه يلقى قبولاً واهتمامًا باهرًا، وإخفاقه يلقى دويًا وصدى عند مستمعيه، فيسجلون الموقف، ويحفظون النص الذي قاله الخطيب للخروج من الموقف، ويرويه الرواة، ثم يدون في الكتب، الارتجال «هو أصعب أنواع الإلقاء، وأرقاها في نظر العارفين، إنه فن لا يستطيعه إلا القليل من الرجال العارفين الواثقين، ذوي الثقافة الواسعة»[48].

الخطابة خاصة تتطلب من المتكلم مجموعة من المهارات العقلية والنفسية والعلمية، كما تتطلب قدرة فائقة على التعامل مع الجمهور، ومرونة مع الموضوعات، واستبدالها بأخرى عند الضرورة، ولم يكن كل الخطباء على مستوى واحد من الإبداع.

وصعوبة الارتجال تكمن في مراعاة الخطيب لما يسمونه (مقتضى الحال)، فهو حين يخطب يراعي الواقع من حيث تطابق خطبته مع حال الجمهور، وانسجامها مع الحادثة والزمن، أما الشاعر فإن الارتجال في حقه أصعب، لأنه يقتضي موافقة ما سبق، وزيادة عليه بأن يتوافق الوزن والقافية، وأحيانًا يتطلبون مناسبة الألفاظ لبعضها البعض.

وكانوا يتطلبون من الخطيب المرتجل التجديد على ما هو موجود أصلًا، وعدم تكرار ما سبق «فإن العربي إذا قويت فصاحته وسمت طبيعته، تصرف وارتجل مالم يسبق إليه، فقد حكي عن رؤبة وأبيه أنهما

كانا يرتجلان ألفاظا لم يسمعا ولم يسبقا إليها»[49].

إن الارتجال يمثل إحدى وسائل التواصل وأهمها «والمجتمع الإنساني يعتمد بشكل أساسي على الطريق الحر والسهل لتبادل المعلومات والأفكار بين أفراده، لهذا السبب وجد الإنسان أن الكلام هو وسيلته المثلى والأكثر فعالية للاتصال»[50]، والحصر يمثل انقطاعًا لهذا التواصل. ولذا اهتم العلماء بانقطاع الكلام لأنه من هذه الناحية انقطاع للتواصل الإنساني.

****

كان الناقد العربي ينظر باهتمام إلى طريقة الخطيب في التخلص من حالة الإرتاج، ويسجل تلك الطريقة مشيدًا بها في التخلص أو ساخرًا منها، وتعد طريقة التخلص واحدة من دلائل اهتمامهم بالإرتاج، وقد انقسم المرتجون (المحصرون) في ذلك إلى قسمين: قسم أثار الإعجاب بطريقة تخلصه، وقد يسمونه حسن الاعتذار[51]، وقسم اتسم موقفهم بالارتباك، ويعنون بحسن الاعتذار أن يعتذر الخطيب بكلام بليغ، ينسي الجمهور موضوع الإرتاج ويشغلهم بجمالية فن الاعتذار، والملاحظ أن عددًا لا يستهان به من أمثلة الإرتاج قد ورد فيها حسن الخروج والاعتذار، وهي تكشف عن قدرة المتكلم على (إلهاء) المستمع بموضوع آخر أو بحديث بديل يشغله عن موضوع الحصر.

وهناك عدد من الخطباء خرجوا إلى نوع من المواقف الظريفة، تعبر عن ما نسميه شعبيًا (خفة الدم)، وذلك بصرف نظر المستمعين إلى موضوع آخر في نكتة طريفة أو موقف مثير للضحك.

لا شك أن جزءًا من اهتمام العربية بالإرتاج انصرف إلى الجانب النفسي للموضوع فقالوا: «ربما كان هذا العي بعض آليات الدفاع عن النفس والدفاع عن القول المكتوم»[52]، وشغل بعضهم بتفسير سبب الإرتاج ومنهم ابن مسكويه، الذي يقول: «إن انصراف النفس بالفكر إلى جهة من الجهات يعوقه عن التصرف في غيرها من الجهات، ولذلك لا يقدر أحد ان يجمع بين الفكر في مسألة هندسية وأخرى نحوية أو شعرية»[53]، ولفت أبو هلال العسكري إلى هذا الجانب حين نقل عن حكيم هندي قوله: «أن يكون الخطيب رابط الجأش ساكن النفس جدًا، لأن الحيرة والدهشة يورثان الحُبسة والحصر، وهما سبب الإرتاج والإجبال»[54].

وبناء على ذلك لفتوا النظر إلى بعض الموضوعات التي يقع الحصر فيها، والموضوعات التي يقل فيها، قال بعضهم: «موطنان لا آنف من الحصر فيهما: إذا شكوت إلى محبوبي عشقي، وإذا سألت حاجة لنفسي»[55]، فالموضوعات القريبة إلى نفس المتكلم هي من الموضوعات السهلة على النفس، يستطيع الخطيب أو الشاعر أن يقول فيها بلا عوائق، كموضوعي الحب وطلب الحاجة.

وهناك موضوعات شكوا من صعوبة الحديث فيها وحضور الإرتاج، كموضوع خطب الإملاك

(الزواج)، قال عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– «ما يتصعدني شيءٌ من الكلام كما تتصعدني خطبة النكاح»[56]، وقال الجاحظ: «انما ذكر خطبة الإملاك لأنهم يذكرون أنه يعرض للخطيب فيها من الحصر أكثر مما يعرض لصاحب المنبر»[57].

غير أن شاعرًا آخر يرى في شعر الحب سببًا للحصر، فوجه الحبيب وحسن طلعته مبرران للحصر والإرتاج، قال أحمد بن أبي طاهر:

عتابًا كأيام الحياة أُعدّه لأُلفي به بدر السماء إذا حظرْ

فإن أخذت عيني محاسن وجهه دهشت لما ألقى فيملكني الحَصَرْ[58]

****

على الرغم من أن العرب كانوا يفخرون بالبلاغة وانسياب الكلام، ويذمون العي والإرتاج، إلا أنهم كانوا يعدون الحصر عذرًا مقبولًا لمن أصابه، يعتذرون به عن انقطاع الكلام وتوقفه وهناك أمثلة لذلك سترد معنا في الشواهد؛ أما من حيث ذمهم الحصر فقد وردت بعض الآثار في ذلك منها قول يونس بن حبيب: «ليس لعيّي مروءة، ولا لمنقوص الكلام بهاء، ولو حك بيافوخه عنان السماء»[59].

وقال الشاعر يذم شخصًا:

حَصِرٌ مُسْهِبٌ جَرِيءٌ جَبَانٌ خَيرُ عِيّ الرِّجالِ عِيّ السكوتِ[60]

وقال الجاحظ: وفرق بين الحصر والعي: «لا يعاب الأخرس، ولا يلام من استولى على بيانه العجز، ويذم الحصر، ويؤنب العي، ووصف أعرابي قومًا بالعي فقال: منهم من ينقطع كلامه قبل أن يصل إلى لسانه، ومنهم من لا يبلغ كلامه أذن جليسه، ومنهم من يلج كلامه الآذان، فيحملها عبئًا ثقيلًا إلى الأذهان»[61].

وقال أبو العيال الهذلي يفخر:

ولا حَصِرٌ بخُطبته إذا ما عزَّت الخُطب[62]

وقال الأعرج:

والقائلين فلا يُعاب خطيبُهم يوم المقامة بالكلامِ الفاصلِ[63]

ومن فخرهم قول الشاعر:

وقلنا بلا عِيٍ وسُسْنا بطاقةٍ إذا النارُ نارُ الحَرب طال اشتعالها[64]

لقد اهتم علماء العربية بحياة العرب كثيرًا، ومن ثم رصدوا كل ما يتصل بحياتهم ووقائعهم، ومن ذلك ما يتعلق بطرق الأداء في خطابهم الشعري والنثري «والجاحظ مهموم بحياة العربية في المجتمع والنظر إليها بطريقة وصفية، بعيدة عن فتنة المعيارية والدعاية»[65].

فالاهتمام بالإرتاج هو جزء من وصف حال العربية وأهلها، بوصفه موضوعًا من موضوعاتها وثيق الصلة بها.

ومراجعتنا لدرس الإرتاج تمثل مراجعة لمفهومات البلاغة والفصاحة والبيان، التي كانت انعكاسًا لثقافة العرب وحياتهم وتصوراتهم.

الأمثلة والشواهد

- قالوا: أول من أرتج عليه الخليفة عثمان بن عفان –رضي الله عنه– [66] وذلك أنه صعد المنبر لإلقاء خطبة البيعة، أو الخلافة، فأرتج عليه فقال: «إن أبا بكر وعمر كانا يعدان لهذا المقام مقالًا، وأنتم إلى إمام عادل أحوج منكم إلى إمام خطيب»[67] ثم نزل.

لا يخلو كتاب تعرض لموضوع الإرتاج من الاستشهاد بهذه الخطبة، وأكثرهم يجعلونها أول الأمثلة، وذلك لشهرة صاحبها الخليفة الثالث للمسلمين، ويبدو أن الأمر عند بعض المؤلفين لا يخلو من لمز خفي بعثمان، الذي شهدت خلافته ظهور معارضات واختلافات، أدت في نهاية المطاف إلى مقتله، وظهور المشاكل والحروب بين المسلمين.

على الرغم من تلكؤ الخليفة عثمان في أول امتحان له على المنبر إلا أنه أحسن التخلص والاعتذار، بعبارات قصيرة موجزة، تحيل المستمعين إلى أفعال الخليفة لا أقواله، ويعدهم كما في بعض ألفاظ الخطبة في مصادر أخرى بالكلام الكثير في مستقبل الأيام « وإن أعش تأتكم الخطب على وجهها، وسيجعل الله بعد عسر يسراً»[68].

فالخليفة عثمان أنموذج لأصحاب المسؤوليات من الخلفاء والأمراء والولاة الذين أصابهم الحصر عند تسلمهم زمام المسؤولية، تلك المسؤولية التي كان بعضهم يتهرب من تحملها وربما يتفاجؤون أحيانًا بإسنادها إليهم.

- ومثل آخر قريب الشبه بحادثة عثمان، ما حدث ليزيد بن أبي سفيان، حين قدم الشام واليًا عليها لأبي بكر الصديق –رضي الله عنه– حين خطب الناس فأرتج عليه، فعاد إلى الحمد لله، ثم أرتج عليه، فعاد إلى الحمد لله، ثم أرتج عليه مرة أخرى، فقال: يا أهل الشام عسى الله أن يجعل بعد عسر يسرًا وبعد عيّ

بيانًا، وأنتم إلى إمام فاعل أحوج منكم إلى إمام قائل، ثم نزل، فبلغ ذلك عمرو بن العاص فاستحسنه [69].

والخبر يعرض لمدى المعاناة التي يعانيها المحصر في الخطاب والمحاولات المتكررة لفتح ما أغلق عليه، غير أن كل أحاديث الإرتاج لا تنتهي بفرج على الخطيب، وموقف يزيد هذا يعد من أفضل المواقف الذي استطاع المحصر أن يخرج منه بكلمات قصيرة بليغة، مختصرة تثير إعجاب المتلقين، أمثال عمرو بن العاص والي مصر والخطيب المفوه المشهور.

- وأُرْتِجَ على يزيد بن المهلب، فلما نزل قال:

فإن لا أكن فيكم خطيبًا فإنني بسيفي إذا جد الوغى لخطيبُ [70]

وهذا شاهد آخر من الشواهد التي تخلص المحصرون فيها من الخطبة إلى الشعر، وقد يذكرون هذا الشاهد مع غير يزيد بن المهلب.

- وكان يزيد بن المهلب هذا قد ولى ثابت قطنة بعض قرى خراسان، فلما صعد المنبر يوم الجمعة قال: الحمد لله، ثم أرتج عليه، فنزل وهو يقول:

فإن لا أكن فيكم خطيبًا فإنني بسيفي إذا جد الوغى لخطيبُ

فقيل له: لو قلتها فوق المنبر لكنت أخطب الناس [71].

وهذا الشاهد يرجع سبب حصر الخطيب إلى مقام المسؤولية، وهيبتها، ويدل تعليقهم عليه على أنهم كانوا يستحسنون في الخطيب سرعة البديهة، وهذا الخطيب قد تأخر في الاستشهاد بالبيت الشعري إلى ما بعد نزوله من المنبر، فعابوه، وكأنهم يقولون: إن الفارق بين حسن التخلص وسوء التخلص هي بضع ثوان من الوقت، فلو قال البيت وهو لا زال على المنبر لكانوا قبلوا اعتذاره وتخلصه.

- ولى يزيد بن المهلب أعرابيًا على بعض كور خراسان، فلما كان يوم الجمعة صعد المنبر وقال: الحمد لله ثم أرتج عليه، فقال: أيها الناس اياكم والدنيا فإنكم، لن تجدوها إلا كما قال الله تعالى:

وما الدنيا بباقية لحِيٍ وما حَيٌّ على الدنيا بباقِ

فقال كاتبه: أصلح الله الأمير، هذا شعر، فقال: فالدنيا باقية على أحد؟ قال: لا، قال: فيبقى عليها أحد؟ قال: لا، قال فما كلفتك إذن؟ [72]

وفي هذا الخبر خروج المحصر إلى الغلط، وذلك بالاستشهاد ببيت من الشعر على أنه آية قرآنية، ثم ما ترتب على ذلك من الجدل العقيم أو المغالطة الجدلية، وهو مثال على الخروج السيء لحالة الحصر التي تصيب بعض المحصرين.

- وعندما وُلِّي عبد الله بن عامر أمر البصرة، صعد منبرها، فأرتج عليه في يوم أضحى، فمكث ساعة ثم قال: والله لا أجمع عليكم عيّا ولؤما، من أخذ شاة من السوق فثمنها عليَّ [73] .

هذا المثل وأمثاله يجعل الخروج من حالة الحصر إلى مخرج خارج اللغة، وهو تعويض عن حالة الإرتاج والفشل في الكلام بحالة من الكرم الاجتماعي المعهود عند العرب.

- وروى الجاحظ أنه لما حصر عبد الله بن عامر على منبر البصرة فشق ذلك عليه، قال له زياد مواسيًا:

إنك إذا أقمت عامة من ترى أصابه أكثر مما أصابك [74] .

لا شك أن حالة الإرتاج هذه كانت تترك أثرا نفسيًا لدى صاحبها، وهذا الأثر يبقى محفوظًا في ذاكرة الجمهور، فيتدخل بعضهم مواسيًا، وفي هذا المثل يواسى المحصر بذكر حالة أكثر الناس، فأكثر الناس أعييا، وأقلهم فصحاء.

- وعبد الله بن عامر هذا حصر مرة أخرى على منبر البصرة، فالتفت يمينا وشمالا، فرأى عتاب بن ورقاء وكان شيخًا أصلع، فقال: يا أصلع، فو الله ما غلطني غيرك، فلعنها الله من صلعة، علي به، فلما مثل بين يديه، أمر أن يضرب عشرين سوطًا، ومنعه من دخول المسجد الجامع بعدها [75].

هذا الشاهد وأمثاله يجعل الخروج من حالة الحصر والإرتاج بنوع من الظرافة والنكتة، وعلى ما يبدو في الخبر من حالة الظلم الذي وقع على الرجل الأصلع، إلا أن الخبر يحيلنا إلى حالة التشاؤم والتفاؤل اللذين اشتهر بهما بعض العرب، وذلك أنهم كانوا يتشاءمون من مشهد الرجل الأصلع.

- ويساق هذا الخبر ذاته بصورة أخرى في بعض المصادر فيروى بهذه الطريقة: صعد رجل المنبر فأرتج عليه فنظر إلى أصلع فقال: اللهم العن هذه الصَلعة [76].

- ومن الخطباء المصاقع الذين أصابتهم حالة الدهش هذه معاوية بن أبي سفيان، وكان خطيبًا يشار إليه بالبنان، وتروي له المصادر عشرات الخطب الرصينة البليغة، ولكنه لما ولي أمر المسلمين قام ليخطب خطبة الولاية، وهي تشبه البيان السياسي رقم واحد في المصطلح السياسي الحديث، أو البرنامج الرسمي للحاكم، فلما صعد المنبر أرتج عليه فقال: «أيها الناس إني قد كنت أعددت مقالًا أقوم به فيكم، فحجبت عنه فإن الله يحول بين المرء وقلبه، كما قال في كتابه، وأنتم إلى إمام عدل أحوج منكم إلى إمام خطيب، وإني آمركم بما أمر الله به ورسوله، وأنهاكم عن ما نهاكم الله ورسوله، وأستغفر الله لي ولكم»[77].

يلاحظ في هذا الشاهد تفوق معاوية بن أبي سفيان في حالة الخروج من مأزق الحصر هذا، وليس بمستغربٍ على رجل خطيب وشاعر خبر السياسة والثقافة، وأصاب منهما حظا موفورا، فمعاوية تمالك نفسه ولم يصب بالجزع، وظل ثابتًا هادئ النفس واثقًا من قدراته، كما يظهر من خلال هذه الخطبة البديلة، وهو هنا يتجاوز الموقف بإنشاء خطبة بديلة.

- ومن الأمراء الفصحاء الذين أعتراهم الإرتاج، الأمير خالد بن عبد الله القسري، فقد صعد يومًا على منبر البصرة فأرتج عليه، فقال: «أيها الناس إن الكلام ليجيء أحيانًا فيتسبَّب سببُه، ويعزب أحيانًا فيعز مطلبُه، فربما طولب فأبى، وكوبر فعصى، فالتأني لمجيئه أصوب من التعاطي لأبيّه»، ثم نزل فما رؤي حصرا أبلغ منه[78].

وتمتاز خطبة خالد بن عبد الله القسري بأنها أطول نسبيًا من بقية خطب الحصر، ويمكن تسميتها بالخطبة البديلة أو الخطبة التعويضية.

والخطبة البديلة قد تكون في ذات الموضوع الذي أراد أن يتكلم فيه الخطيب ابتداء، أو في موضوع آخر بديل، وغالبًا ما كانت الخطب البديلة تتمحور في موضوع الكلام، والشكوى من صعوبة انقياده

لصاحبه، وتعذر البلوغ إليه عند الحاجة، وهو ما يكشف ضعف قدرة الإنسان وقلة حيلته أمام صلف وتعنت اللغة.

- ومثل هذه الخطبة والخبر نجد خبرًا آخر لداود بن علي العباسي، داعية الدولة العباسية، وأحد قادتها، فقد خطب يوما فحمد الله —جل وعز– ، وأثنى عليه، وصلى على النبي –صلى الله عليه وسلم– فلما قال: أما بعد: امتنع عليه الكلام، ثم قال: أما بعد: فقد يجد المِعْسِر ويُعْسِر الموسر ويُفَلّ الحديد، ويُقْطَعُ الكَلِيْل، وإنما الكلام بعد الإفحام كالإشراق بعد الإظلام، وقد يعزب البيان، و يعتقم الصواب، وإنما اللسان مضغة من الإنسان يَفْتُرُ بفتوره إذا نكل، ويثوبُ بانبساطه إذا ارتجل، ألا وإننا لا ننطق بَطَرا ولا نسكت حصرًا، بل نسكت معتبرين وننطق مرشدين، ونحن –بعدُ– أمراء القول، فينا وشجت أعراقه، وعلينا عطفت أغصانه، ولنا تهدّلت ثمرته فنتخيّر منه ما احلولى وعَذُب، ونطرح منه ما املوح وخَبُث، ومن بعد مقامنا هذا مقام، وبعد أيامنا أيام، يعرف فيها فضل البيان، وفصل الخطاب، والله أفضل مستعان[79].

وفي مثل هذه الخطبة التعويضية نجد الخطيب يستعيد أنفاسه، ويتمالك قواه، ومن ثم ينطلق في الكلام انطلاقه المعهود في الخطب، ولا تخلو الخطب التعويضية من الحديث عن موضوع البيان، وكيف أنه لا يسلس قياده للمتكلم في كل مرة، ثم خرج إلى الفخر بالكلام، والفصاحة والبيان، وأنه وقومه —بني العباس– اشتهروا بذرب اللسان، والريادة في القول، وحسن اختيار الكلام، وهنا إشارة إلى ما سبق أن تحدثنا عنه في لغة الصمت أو نطق الصمت في قوله :(نسكت معتبرين)، فالصمت لغة، ولها دلالاتها عند العرب.

- ويروى لداود بن علي العباسي خبرًا آخر في الإرتاج، فقد خطب مرة فأرتج عليه فقال: اتقوا الله وافعلوا ما أمركم الله به، وانتهوا عن ما نهاكم عنه، ثم نزل[80].

ولا يختلف هذا الخبر عن معظم أخبار الإرتاج وأكثرها شيوعا وهو الخروج من حالة الحصر إلى نص نثري يمثل جزءًا من خطبة قصيرة جامعة ومركزة، والملاحظ أن يختم المؤلفون معظم هذه الأخبار بعبارة: فأعجب الناس لأمره هذا، أو ما يشابهها.

- ومن أخبار علي بن أبي طالب —رضي الله عنه– ما ذكره ابن أبي الحديد «أمر علي بن أبي طالب ابن أخته جعدة بن هبيرة المخزومي أن يخطب الناس يومًا، فصعد المنبر فحصر، فلم يستطع الكلام، فقام أمير المؤمنين –عليه السلام– فتسنم المنبر وخطب خطبة طويلة».[81]

هذا الشاهد يجعل الخروج من حالة الإرتاج بالاستعانة بشخص آخر، وهناك عدد من الأمثلة تشبه هذه الحالة وذلك بأن يتدخل شخص آخر لإنقاذ الموقف، والخروج من حالة الحصر، ومن ذلك:

- –أنه اجتمع لدى الخليفة الناصر الأموي في الأندلس جمع من الخطباء والشعراء فقدم أبو علي القالي ليخطب بين يدي الخليفة، فحمد الله وأثنى عليه، ثم أرتج عليه، وبهت وسكت، فلما رأى ذلك منذر القاضي، قام دونه بدرجة، ووصل افتتاح القالي بكلام عجيب، بهر العقول جزالة، وملأ الأسماع جلالة...

إلخ [82].

والخبر يشير إلى أن حالة الإرتاج لم تستثن العلماء، وأصحاب الاختصاص في اللغة والبيان، ومن هم على درجة من الثقافة والمعرفة، كأبي علي القالي، ذلك لأن هذه الحالة ترتبط بالمحافل الاجتماعية، وما يترتب عليها من تأثير نفسي على الخطيب والمتكلم.

إن حالة الإرتاج تكشف أحيانًا عن نمط من العلماء المبرزين، لا تتجلى قدراتهم في الخطابة، بقدر ما تظهر في التأليف والتدريس، وهذا المثل ينطبق على أبي علي القالي المعلم والمؤلف والعالم الجليل.

وتتكرر حالة الظَرَف كثيرًا في شواهد الإرتاج، وكأنها تساق لكسر حالة الإحباط، الذي قد يصيب المتكلم أو المستمع إثر حادثة الإرتاج، فانتهاء حادثة الحصر بنكتة أو موقف غريب، أو حالة كوميدية هو من باب تخفيف وطأة الحصر على الخطيب نفسه وجمهوره، وفيها يتجلى –أحيانًا– لون من ألوان الذكاء الاجتماعي، وأحيانًا يتدخل الخطيب بسلطته الرسمية في تغطية حالة الحصر بإجراء سلطوي.

- من ذلك ما روي عن أبي العنبس أنه صعد منبرًا من منابر الطائف، فحمد الله وأثنى عليه، فقال: أما بعد، فأرتج عليه فقال: أتدرون ما أريد أن أقول لكم؟ قالوا لا، قال: فما ينفعني ما أريد أن أقول لكم؟ ثم نزل.

فلما كان في الجمعة الثانية، صعد المنبر وقال: أما بعد: فأرتج عليه فقال: أتدرون ما أريد أن أقول لكم؟ قالوا نعم، قال: فما حاجتكم إلى أن أقول لكم ما علمتم؟ ثم نزل.

فلما كانت الجمعة الثالثة قال أما بعد: فأرتج عليه، قال: أتدرون ما أريد أن أقول لكم؟ قالوا: بعضنا يدري وبعضنا لا يدري، قال: فليخبر الذي يدري منكم الذي لا يدري، ثم نزل [83].

وقد لا يصدق خبر إرتاج أبي العنبس هذا لثلاث مرات متتاليات، والناس يقبلون به خطيبًا، المرة تلو الأخرى، وقد لا يصدق تجاوب الجمهور معه في كل مرة للإجابة عليه بطريقة جديدة، تستدرك إجابتهم السابقة، وقد يتبادر إلى بعض الأذهان أن هذه الحكاية من نسج الخيال العربي، ومن الطرائف المصنوعة لغرض الإضحاك والتنكيت، غير أن الأمر الذي يهمنا هو استقرار أحاديث الإرتاج والحصر وبلوغها مرحلة الحكايات الأدبية والقصص القصيرة، وهذا دليل كافٍ على أن الأدب العربي خصها بجزء من الاهتمام، بحيث عدها لونا من ألوان الأخبار والحكايات الأدبية التي تستحق ان تروى وتدون في أمهات المصادر.

- صعد عدي بن أرطأة المنبر (وهو عامل يزيد بن عبد الملك على البصرة)، فلما رأى جمع الناس حصر فقال: الحمد لله الذي يطعم هؤلاء ويسقيهم[84].

- وأرتج على معن بن زائدة فضرب المنبر برجله، ثم قال: فتى حروب لا فتى منابر[85].

والعامل المشترك بين هذين الخبرين هو قصر العبارة التي خرج بها المحصران، وكونهما من الأمراء، وعبارة عدي بن أرطأة تحيلنا إلى الجمع المهيب، وكون هذا الجمهور سبب إدهاش الخطيب وانحباس كلامه، والثانية تحيلنا إلى المعنى العام المتعارف عليه وهو الوارد في البيت الشعري:

فإن لا أكن فيكم خطيبًا فإنني بسيفي إذا جد الوغى لخطيبُ

- ومن الأخبار التي التفت فيها الخطيب إلى الجمهور خبر روح بن حاتم، الذي عندما رأى جمع الناس حصر فقال: نكسوا رؤوسكم وغضوا أبصاركم، فإن أول مركب صعب، وإذا يسر الله فتح قفل تيسر. (86)

وهناك زيادة في هذا الخبر في بعض الروايات تقول: فلما رآهم شفنوا أبصارهم وفتحوا أسماعهم نحوه حصر (87).

تكشف هذه الزيادة أحد أهم أسباب الحصر والإرتاج وهي الاندهاش من كثرة عدد الجمهور، مما يتسبب في الحصر، «فترى الخطيب يبرد جسمه، وتخور قوته، ويتصبب عرقه، ويدور رأسه، وتطن أذنه، ويشحب لونه، وتسرع ضربات قلبه»(88).

تشير بعض أخبار الحصر إلى الجانب النفسي للموضوع، ذلك أن الخطيب قد يكون أعد للموضوع وتهيأ له، لكنه حين يصعد المنبر يخذله لسانه، فيرتبك في موقفه، وكثير من الخطباء قد يجلس مع نفسه فتنثال عليه المعاني، وتسعفه الألفاظ، فيقول خطبة بليغة لو خرجت للناس لاحتفلت بها المحافل، ودونت في الكتب، غير أن هناك فرقا بين حديث النفس ومشافهة الجمهور، ومثل هذا المعنى يشير إليه هذا الخبر:

- كان عبدربه اليشكري عاملا لعيسى بن موسى(العباسي) على المدائن، فصعد المنبر، فحمد الله وأرتج عليه، فسكت ثم قال: والله إني لأكون في بيتي فتجيء على لساني ألف كلمة، فإذا قمت على أعوادكم هذه جاء الشيطان فمحاها من صدري، ولقد كنت وما في الأيام يوم أحب إلي من يوم الجمعة، فصرت وما في الأيام أبغض إلي من يوم الجمعة، وما ذلك إلا لخطبتكم هذه (89).

لقد تسببت حالة الإرتاج هذه لهذا الخطيب في كراهة حضور يوم الجمعة، لكن غيره من الخطباء ربما أقلع عن الخطب بشكل مؤقت أو نهائي.

يكرر اليشكري هذا موضوع الشكوى من المنابر وما تحمله من مسؤولية وأعباء على صاحبها، ويعزي سبب الفشل إلى عامل خارجي وهو الشيطان.

يتضح من خلال شواهد الحصر والإرتاج أن هؤلاء الخطباء تعاملوا مع هذه الظاهرة بطرق مختلفة، فمنهم من تخلص بعبارة قصيرة مركزة وجامعة، غطت على الحصر، واستحسنها الجمهور والمؤلفون من بعدهم، ومنهم من تخلص بخطبة بديلة أو تعويضية كما أسلفنا، ومنهم من استعان بخطيب آخر قام مقام الخطيب المحصر، وقد يعتذر بعضهم اعتذارًا حسنًا مقبولًا، غير أن جمهرة من هؤلاء الخطباء قد أساؤا الخروج من حالة الحصر هذه ببعض التصرفات اللغوية، أو بما هو خارج اللغة، وهم عدد لا بأس به من هؤلاء، نورد بعض الشواهد من مواقفهم في السطور التالية:

- كان سعيد بن بحدل الكلبي واليا على قنسرين فوثب عليه زفر بن الحارث، فأخرجه منها، وبايع لابن الزبير، فلما قعد زفر على المنبر قال: الحمد لله الذي أقعدني مقعد الغادر الفاجر، وحصر فضحك الناس من قوله(90).

- وحدث عيسى بن عمر فقال: خطب أمير مرة فانقطع فخجل، فبعث إلى قوم من القبائل عابوا ذلك ولفهم، وفيهم يربوعي جلد، فقال: اخطبوا، فقام واحد فمر في الخطبة حتى إذا بلغ أما بعد: قال: أما بعد، أما بعد، ولم يدر ما يقول، ثم قال: فإن امرأتي طالق ثلاثًا، لم أرد أن أجمّع اليوم فمنعتني، وخطب آخر، فلما بلغ أما بعد: بقي ونظر، فإذا إنسان ينظر إليه، فقال: لعنك الله ترى ما أنا فيه وتلمحني ببصرك أيضا! وقال أحدهم: رأيت القراقر من السفن تجري بيني وبين الناس، وصعد اليربوعي، فخطب فقال: أما بعد، فو الله ما أدري ما أقول، ولا فيم أقمتموني، أقول ماذا؟ قال بعضهم، قل في الزيت، فقال: الزيت مبارك فكلوا منه وادهنوا، قال: فهو قول الشطار اليوم، إذا قيل لم فعلت ذا، فقل في شأن الزيت، وفي حال الزيت [91].

- ودعي رجل ليخطب في نكاح فحصر فقال: لقنوا موتاكم شهادة أن لا إله إلا الله، فقالت امرأة حضرت: ألهذا دعوناك أماتك الله [92].

- وصعد رجل على المنبر فلما استوى قائما وقابل بوجهه وجوه الناس، وقعت عينه على صلعة رجل، فقال: اللهم العن هذه الصلعة [93].

- خطب مصعب بن حيان أخو مقاتل بن حيان خطبة نكاح فحصر، فقال: لقنوا موتاكم قول لا إله إلا الله، فقالت أم الجارية عجل الله موتك، ألهذا دعوناك؟ [94]

- وخطب أمير المؤمنين الموالي –وهكذا لقبه– خطبة نكاح فحصر، وقال، اللهم إنا نحمدك ونستعينك ونشرك بك [95].

- وصعد وازع اليشكري المنبر يوم الجمعة، فلما رأى جمع الناس هابهم، فحصر، قال: لولا أن امرأتي حملتني على إتيان الجمعة ما جمعت، وأنا اشهدكم أنها طالق ثلاثًا[96].

- وقيل لرجل من الوجوه: قم فاصعد المنبر وتكلم، فلما صعد حصر، وقال الحمد لله الذي يرزق هؤلاء، وبقي ساكتًا فأنزلوه. [97]

- وخطب عتاب بن ورقاء، فحث على الجهاد فقال، هذا كما قال الله تعالى في كتابه:

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جر الذيولِ [98]

هذه بعض أخبار من أخطأ في التخلص من حالة الحصر والإرتاج، وترد أخبار يمكن تصنيفها في موضوع الخطأ في الخطب مثل هذا الخبر الأخير، والخبر التالي:

- خطب عتاب بن ورقاء يوما فقال: هذا كما قال الله –تبارك وتعالى– إنما يتفاضل الناس بأعمالهم، وكلما هو آت قريب، قالوا له: إن هذا ليس من كتاب الله، قال: ما ظننت إلا أنه من كتاب الله [99].

- واستكمالًا لهذه الأخبار نورد فيما يلي بعض الشواهد المختلفة من حالات الحصر والإرتاج.

- ولي رجل من بني هاشم يعرف بالدندان بحر اليمامة، فلما صعد المنبر أرتج عليه، فقال: حيا الله هذه الوجوه، وجعلني فداءها، فإني قد أمرت طائفي بالليل أن لا يرى أحدًا إلا أتاني به، ولو كنت أنا إياه،

ونزل [100].

- دعي أيوب بن القِرِّية لكلام فاحتبس القول عليه، فقال: قد طال السمر، وسقط القمر، واشتد المطر، فماذا ينتظر؟ فأجابه فتى من بني عبد القيس فقال: قد طال الأرق، وسقط الشفق، وكثر اللثق، فلينطق ما نطق[101].

- صعد عتاب بن ورقاء منبر أصبهان يوم النحر فحصر، فقال: لا أجمع عليكم عيا وبخلا، ادخلوا سوق الغنم، فمن أخذ منكم شاة فهي له وعلي ثمنها [102].

- وجاء في أمالي المرتضى: روي أن بعض خلفاء بني العباس –وأظنه الرشيد– صعد المنبر ليخطب، فسقطت على وجهه ذبابة، فطردها فرجعت، فحصر وأرتج عليه، فقال: أعوذ بالله السميع العليم (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب) سورة الحج آية 73، ثم نزل فاستحسن ذلك[103].

- قال أبو بكر الهذلي الشاعر: طلبت الإذن على المنصور، فوعدت بيوم أدخل عليه فيه، فوافيت ذلك اليوم فوجدت أبا حنيفة وعمرو بن عبيد قد سبقاني، فقعدنا قليلًا ثم خرج الإذن لنا فدخلنا، وقد كنت هيأت كلامًا ألقى به المنصور، وهيأ أبو حنيفة مثل ذلك، فلما رأيناه أرتج علينا، وكان جهدنا أن أقمنا التسليم فسلمنا، فأومأ برأسه ، وأقبلت ألاحظ أبا حنيفة عجبه مما نالني وناله من الدهش، فرفع عمرو رأسه فقال: بسم الله الرحمن الرحيم، والفجر وليالٍ عشر... إلى قوله فصب عليهم ربك سوط عذاب، إن ربك لبالمرصاد، يا أمير المؤمنين بالمرصاد لمن عمل مثل عملهم أن ينزل به مثل ما نزل بهم، فاتق الله يا أمير المؤمنين، فإن وراءك نيرانا تأجج من الجور ما يعمل بكتاب الله وسنة نبيه...إلخ[104].

- صعد بعض الخطباء المنبر، فحصر بعد الحمد لله، فكررها مرارًا، فقال بعض من حضره: على ما أبلانا بك، فإنه لا يحمد على مكروه غيره، ثم ولّى وهو ينشد:

ختم الإله على لسان عنفرٍ ... ختمًا فليس على الكلام بقادرِ
فإذا أراد النطق خلت لسانه ... لحمًا تحركه لصقر نافرِ[105]

خاتمة

خلص هذا البحث إلى تعريف الإرتاج، وبيان صوره، ودلالاته، واستعرض قدرا كبيرا من شواهده.

وقد تبين أن الإرتاج مصطلح أطلق على كل من تعثر في الكلام، أو انحبس لسانه، أثناء أدائه ومواجهته جمهوره، وتشمل فئة البحث الخطباء الذين تعرضوا لمواقف الحصر، وكان جمهور أحاديث الحصر والإرتاج من المتكلمين الفصحاء الذين اشتهروا بالبلاغة والبيان.

وردت أحاديث الإرتاج وشواهده في سياقات متفرقة، دون أن تخضع للدراسة والتحليل، فكانت مهمة البحث جمع أكبر قدر منها، وتصنيفها واكتشاف دلالاتها، وذلك بالنظر إلى سياقاتها، وربطها بظواهر اللغة والبلاغة، اعتمادا على منهجية تعدد التفسير، وطريقة تأويل النصوص، بما يثري الموضوع، ويعيد عرضه في سياق مختلف.

وأخيرا نوصي الدارسين بدراسة هذه النصوص دراسة تحليلية معمقة، فقد اكتفينا هنا بلفت النظر إلى الظاهرة وتفسيرها دون الغوص في أعماق نصوصها تاركين ذلك لجهد آخر.

كما نوصي بدراسة ظواهر لها صلة بالموضوع، مثل: ظاهرة العي وعيوب الكلام، وينبغي كذلك توسيع مفهوم حقول البلاغة؛ والأدب لتشمل موضوع المعالجات الأولية لإنتاج النصوص، والمعوقات التي تعترض طريق المنشئين من الأدباء والمتكلمين.

الهوامش

1. مجلة جذور العدد 18، موضوع تأويل النص الشعري القديم بين التراث والمعاصرة، للكاتب عادل الفريحات ص 220.

2. كما في الدراسة التي أعدها مصطفى ناصف في كتابه: محاورات مع النثر العربي، منشورات عالم المعرفة، سلسلة كتب يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، فبراير 1979م

3. لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن منظور، 15 مجلدا، طبعة دار الفكر، الطبعة الثالثة، 1414هـ -1994م، مادة (رتج).

4. تصحيح الفصيح وشرحه لابن درستويه، تحقيق: محمد بدوي المختون، الناشر: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1998م، ص 397 بتصرف. وينظر كذلك كتاب تقويم اللسان لأبي الفرج ابن الجوزي، تحقيق محمد عبد العزيز مطير، دار المعارف، الطبعة الثانية 2006م، ص73.

5. لسان العرب مادة (رتج)، وكذلك هو التعريف عند أبي منصور الأزهري في تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، 8 أجزاء، بيروت، الطبعة الأولى 2001م، ص6/11.
6. تصحيح الفصيح وشرحه 397
7. لسان العرب مادة (حصر).
8. السابق.
9. كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر، أبو هلال العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية بيروت، لبنان 1419هـ، ص22
10. لسان العرب مادة (جبل).
11. تهذيب اللغة 97/4.
12. الخطابة: أصولها وتاريخها في أزهر عصورها عند العرب، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت، ص49.
13. لسان العرب مادة (عيي).
14. السابق بتصرف.
15. ينظر كتاب البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن كثير، 15 جزءًا، دار الفكر 1407هـ/1986م، 48/7.
16. البصائر والذخائر، أبو حيان التوحيدي، تحقيق/ وداد القاضي، الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، 1408هـ -1988م، 69/7.
17. محاورات مع النثر العربي، ص18,
18. البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق/ عبد السلام هارون، 4 أجزاء، دار الجيل، بيروت، د.ت، 77/1.
19. البيان والتبيين 113/1.
20. العقد الفريد، أحمد بن عبد ربه، 7أجزاء، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى،1417هـ-1996م،272/4.
21. محاورات مع النثر العربي ،16.
22. البيان والتبيين 155/1.
23. غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائض الفاضحة أبو إسحاق برهان الدين الوطواط، ضبط وشرح/ إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت، 230/1.

24. محاورات مع النثر العربي 16.
25. العقد الفريد 135/4.
26. عيون الأخبار، لابن قتيبة، 4 أجزاء، دار الكتب العلمية، بيروت، (1418هـ)، ص 279/2، ومعنى قعقعة البريد: صوته.
27. البيان والتبيين 3/1.
28. السابق 27/1، والعثنون: اللحية الكثيفة.
29. السابق 47/1.
30. الهوامل والشوامل ابن مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد، تحقيق: سيد كسروي، ط1: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان(2001م)، 93/1، ومعنى السماطين: الصفين والجانبين.
31. في النثر العربي: قضايا وفنون ونصوص، محمد يونس عبد العال، الشركة المصرية العالمية للنشر – لونجمان القاهرة – الطبعة الأولى 1996، ص82.
32. محاورات مع النثر العربي 16.
33. السابق نفسه.
34. حسن السمت في الصمت، جلال الدين السيوطي، تحقيق/ احمد محمد سليمان، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، مصر، (2010) ص79.
35. بهجة المجالس وأنس المجالس، أبو عمرو يوسف بن محمد بن عبد البر، تحقيق محمد موسى الخولي، 3 مجلدات، دار الكتب العلمية، ط2، (2008) بيروت،80/1
36. السابق 78/1.
37. السابق نفسه.
38. البيان والتبيين 192/1.
39. بهجة المجالس وأنس المجالس 78/1.
40. السابق 80/1.
41. محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، للراغب الأصفهاني، جزءان، الناشر: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، الطبعة الأولى، 1420هـ،94/1.
42. حسن السمت في الصمت ص27.
43. البيان والتبيين 191/1.
44. غرر الخصائص الواضحة 28.

45. محاورات مع النثر العربي 15.
46. السابق 16.
47. في بلاغة الخطاب الإقناعي، د/محمد العمري، منشورات دار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1406 هـ – 1986م، ص14.
48. فن الكلام، د/كمال بشر، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة ،2003م ص26.
49. تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي: دار الكتاب العربي،3 أجزاء، ص1/115.
50. المنظومة الكلامية، تأليف د/ بيتر ب–دنيس و د/ إليوت بنش، ترجمة محي الدين حميدي، منشورات الهيئة القومية للبحث العلمي، ليبيا، ومعهد الإنماء العربي، بيروت ،1991م ص16.
51. كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري 21.
52. محاورات مع النثر العربي 17.
53. الهوامل والشوامل 93/1.
54. كتاب الصناعتين 21.
55. محاضرات الأدباء 89/1.
56. رسائل الجاحظ (الرسائل السياسية)، عمرو بن بحر الجاحظ، دار ومكتبة الهلال، بيروت د.ت ص439.
57. البيان والتبيين 134/1.
58. محاضرات الأدباء 128/2.
59. البيان والتبيين 77/1، والمراد باليافوخة: ملتقى عظمة مقدمة الرأس مع عظمة مؤخرة الرأس.
60. السابق 4/1
61. غرر الخصائص 215.
62. البيان والتبيين 3/1.
63. السابق 271/2.
64. السابق 5/1.
65. محاورات مع النثر العربي 19.
66. تاريخ الخلفاء، جلال الدين السيوطي، تحقيق/ مجدي الدمرداش، مكتبة نزار مصطفى النجار، الطبعة الأولى ،1425هـ – 2004م، ص129.
67. البيان والتبيين 250/2.

68. العقد الفريد 134/4.
69. السابق نفسه.
70. محاضرات الأدباء 174/1
71. جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهية، د/ زكي صفوت، 3 أجزاء، المكتبة العلمية، بيروت، د.ت، 351/3.
72. أخبار الحمقى والمغفلين، جمال الدين أبو الفرج ابن الجوزي، شرحه: عبد الأمير مهنا، دار الفكر اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى ،1410هـ/1990م، ص101.
73. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، شمس الدين الذهبي، 52 جزءا، تحقيق: عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية 1413هـ - 1993م، 258/4.
74. البيان والتبيين 251/2.
75. غرر الخصائص الواضحة 224.
76. محاضرات الأدباء 174/1.
77. العقد الفريد 135/4.
78. الأمالي، لأبي علي القالي، 3 أجزاء في مجلدين مع الذيل وكتاب التنبيه على أوهام أبي علي القالي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1416هـ - 1996م، ص 111/1 والخبر بصيغة أخرى في كتاب أنساب الأشراف للبلاذري. وشجت: اشتبكت
79. كتاب الصناعتين 22/1.
80. غرر الخصائص الواضحة 225.
81. شرح نهج البلاغة، عبد الحميد بن أبي الحديد، 4 مجلدات، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1409هـ -1989م، 13/13.
82. تاريخ الإسلام للذهبي ،133/26.
83. العقد الفريد 135/4.
84. البيان والتبيين 249/2.
85. عيون الأخبار 281/2.
86. السابق، وانظر كذلك البيان والتبين 249/2.
87. جمهرة خطب العرب 353/3.
88. فن الخطابة، د/ محمد أحمد الحوفي، مطبعة نهضة مصر، القاهرة 2003م، ص14.

89. جمهرة خطب العرب 354/3، وينظر كذلك فن الخطابة لأحمد الحوفي ص14.
90. السابق353/3.
91. الخبر بتمامه في عيون الأخبار ،279/2–280، وانظر كذلك جمهرة خطب العرب 354/3–353.
92. عيون الأخبار 282/2.
93. البيان والتبيين 251/2.
94. السابق 252/2، وغرر الخصائص الواضحة 224.
95. السابق 250/2.
96. غرر الخصائص الواضحة 224 والبيان والتبيين 251/2.
97. البيان والتبيين 251/2.
98. جمهرة خطب العرب 357/3.
99. السابق نفسه.
100. عيون الأخبار 282/2.
101. جمهرة خطب العرب 355/3.
102. محاضرات الأدباء 175/1.
103. جمهرة خطب العرب 356/3.
104. مرآة الجنان وعبرة اليقظان، أبو محمد عفيف الدين اليافعي، وضع حواشيه /خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، 1417هـ –1997م، 262/2.
105. غرر الخصائص الواضحة 225.

قائمة المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم.
2. ابن الأثير، عز الدين (ت637هـ). **الكامل في التاريخ**، 10أجزاء: دار الكتاب العربي، (ط1)1997، بيروت، لبنان.
3. الأزهري، أبو منصور (ت370هـ)، **تهذيب اللغة**، تحقيق: محمد عوض مرعب: دار إحياء التراث العربي، (ط1–2001م) 8أجزاء، بيروت، لبنان.
4. بشر، كمال (2003). **فن الكلام**: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.
5. البَلَاذُري، أحمد بن يحيى (ت279هـ)، **جمل من أنساب الأشراف**، تحقيق: سهيل زكار، ورياض الزركلي: دار الفكر، (ط 1996،1م) 13جزءًا، بيروت، لبنان.
6. الجاحظ أبو عثمان، عمرو بن بحر(ت255هـ)، **البيان والتبيين**: دار ومكتبة الهلال، (1423هـ)،3أجزاء، بيروت، لبنان.
7. الجاحظ أبو عثمان، عمرو بن بحر (ت255هـ)، **رسائل الجاحظ (الرسائل السياسية)**: دار ومكتبة الهلال، د.ت، بيروت، لبنان.
8. ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج (ت597هـ)، **أخبار الحمقى والمغفلين**، شرحه: عبد الأمير مهنا: دار الفكر اللبناني، (ط1–1990)، بيروت، لبنان.
9. ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج (ت597هـ)، **تقويم اللسان**، تحقيق: محمد عبد العزيز مطير، دار المعارف، (ط2–2006) مصر.
10. ابن أبي الحديد، عبد الحميد (ت656هـ)، **شرح نهج البلاغة**: دار إحياء التراث العربي (1989)، 4مجلدات، بيروت، لبنان.
11. الحوفي، محمد أحمد، **فن الخطابة**: دار نهضة مصر(2003)، القاهرة، مصر.
12. ابن درستويه (ت347هـ). **تصحيح الفصيح وشرحه**، تحقيق/محمد بدوي المختون (1998): المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة.
13. دينيس، بيتر–ب؛ و إليوت بنش(1991). **المنظومة الكلامية** ، ترجمة محي الدين حميدي، : الهيئة القومية للبحث العلمي، ليبيا، ومعهد الإنماء العربي، بيروت.
14. الذهبي، شمس الدين(ت748هـ)، **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، 52 جزءا، تحقيق: عمر عبد السلام التدمري، (ط 2–1993): دار الكتاب العربي، بيروت.
15. الراغب الأصفهاني (ت502هـ)، محاضرات الأدباء، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، ط1 (1420هـ) بيروت.

16. الرافعي، مصطفى صادق، **تاريخ آداب العرب**،3 أجزاء: دار الكتاب العربي، بيروت، (د.ت).
17. أبو زهرة، محمد، **الخطابة: أصولها وتاريخها في أزهر عصورها عند العرب**: دار الفكر العربي، القاهرة، (د.ت).
18. السيوطي، جلال الدين (ت911هـ)، **تاريخ الخلفاء**، تحقيق/ مجدي الدمرداش، (ط1-2004): مكتبة نزار مصطفى النجار.
19. السيوطي، جلال الدين (ت911هـ) **حسن السمت في الصمت**، تحقيق/ احمد محمد سليمان(2010): دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، مصر.
20. صفوت، زكي، **جمهرة خطب العرب في عصورها الزاهية**، 3أجزاء: المكتبة العلمية، بيروت، د.ت.
21. ابن عبد البر، أبو عمر يوسف (ت463هج)، **بهجة المجالس وأنس المجالس، تحقيق: محمد موسى الخولي،3 مجلدات، دار الكتب، ط2– 2008بيروت.**
22. عبد العال، محمد يونس (1996)، **في النثر العربي: قضايا وفنون ونصوص**، ط1: الشركة المصرية العالمية، القاهرة.
23. ابن عبد ربه، أحمد (ت276هـ)، العقد الفريد، 7أجزاء، (ط1-1996): دار إحياء التراث العربي، بيروت.
24. العسكري، أبو هلال، (ت395 هـ)، **كتاب الصناعتين**، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم (1419): المكتبة العصرية – بيروت.
25. العمري، محمد، **في بلاغة الخطاب الإقناعي**، (ط1-1986): دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب.
26. الفريحات، عادل، موضوع تأويل النص الشعري القديم بين التراث والمعاصرة، **مجلة جذور**، العدد 18.
27. القالي، أبو علي (ت356هـ)، **الأمالي** ،3 أجزاء في مجلدين مع الذيل وكتاب التنبيه على أوهام أبي علي القالي، (ط1-1996): دار الكتب العلمية، بيروت.
28. ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت 276هـ)، **عيون الأخبار**، عدد الأجزاء4: دار الكتب العلمية(1418هـ)، بيروت.
29. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل (ت774هـ)، **البداية والنهاية**، 15 جزءًا: دار الفكر (1986).
30. ابن مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد (ت421هـ)، **الهوامل والشوامل (سؤالات أبي حيان التوحيد لأبي علي مسكويه)**، تحقيق: سيد كسروي، (ط1_2001م) دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
31. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين(ت711هـ)، **لسان العرب**، عدد المجلدات 15، (ط3-

1994): دار صادر، بيروت.
32. ناصف، مصطفى، **محاورات مع النثر العربي**: عالم المعرفة، سلسلة كتب يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب (1979)، الكويت.
33. الوطواط، أبو إسحاق برهان الدين(ت718هـ). **غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائض الفاضحة**، ضبط وشرح/ إبراهيم شمس الدين: دار الكتب العلمية د.ت، بيروت.
34. اليافعي، أبو محمد عفيف الدين (ت768هـ). مرآة الجنان وعبرة اليقظان، وضع حواشيه /خليل المنصور: دار الكتب العلمية (1997)، بيروت.